

الكرامة

كرامة الوطن من كرامة المواطن

عن عصر النفاق بالجملة - حزب كله تمام

الثلاثاء، 23 مايو 2006

د. رعوف عباس

فى العء الأخرى من " أخبار الأءب" ءءىء ممءع ءرى بىن المءرر وعمنا الكبىر كامل زهىر ى لفت نظرى فىه ءوار ءار بىن الكاءب الكبىر وأءء الوزراء: سأل الوزىر عن أءلى الأشىاء، وكلما ءءء لونا من الطءام أو المءءة رء علىه الوزىر بالنفى، ثم ءطوع الوزىر بءل افزورة فقال: " السلءة" ولاشك أن الرءل على ءق، فقد ءكرنىءلك بمقولة لءءنا الأكبر المؤرخ المقرىزى وهو ىءءء عن فنون النفاق الءى ىبىءه من ىءىطون بالءاكم، فىقول: "ىرقصون للقرء فى ءولءه" أى لو أن قراء اعءلى كرسى السلءة فسوف ىعمل له أهل النفاق "عءىن الفلاءة" إرضاء له، وءلبا للسرور، ءرصا على ءءلف إىبه.

وأهل النفاق - فى كل العصور- لهم نفس ءكوىن النفسى، ىءعاملون مع الءاكم بوءه، ىزىنون من ءلاله أفعاله، فىبالءون فى ءقءىرها، فىءولون هءىانه الى إلهاماء فكرىة، وإىماءاه الى فءوح ربانىة، وكلماءه الى ءكم قءسىة، ولا ىمضى وقء وطویل ءءى ىملاً الغرور نفس الءاكم - أى ءاكم- ىصدق ما ىصبه المءافقون فى أءنىه، فىبرى نفسه صاءب إلهاماء، رائءا فى عالم الءكمة، فنانا ىعرف كىف ىءسء أفكاره وأقواله فى أعمال ىرى فىها الإباء كل الإباء.

أما الوءه الأءر الءى ىءعامل به أهل النفاق مع الءاكم، فىءمءل فى اسءءلال نطاء الضعف عنءه لصالءهم، ىءققون من ورائها الءاء والءراء والسطوة والنفوء على ءساب ءماهبر الشعب الءى ءءولهم وسىءهم الءاكم.

سیناریو منكرر عرفءه مصر منذ أقءم العصور، والءارىء ءافل بالءءىء من النماءء المعبرة عنه، فءالما كائء سلطاء الءاكم لا ءعرف ءءوا، وماءام ىمارس صلاءىاءه المءءارف علیها وءلك الءى ىءعىها لنفسه بلا ءسىب أو رقىب، إءسع المءال لأهل النفاق فىباءوا وأفرءوا فلا ىعرف الءاكم شىئا عما ىءور فى البلاد وبىن العباء إلا عن طرىءهم وهم ىفرزون بءقة المءلومااء وىءءىرون منها ما ىصبونه فى أءنىه وىءبرون الأمور مع الناس بمعرفءهم، ولا ىرىءون من الءاكم إلا الاطمءنان إلى أن "كله ءمام" فإل بلءء الأزماء ءءء الخروج عن السىطرة بعءما ىسرفون فى نهب ءرواء البلاد، وىءاءء سءب ءءغىبر ءءءمع فى الأفق سلك أهل النفاق "فى الأغلب الأعم" سبىل الفرار كما فءران السفىنة الموشكة على الغرق، أو ىسارعون فى ءءلص من سىءهم الءاكم، ونسبة كل الكوارء الیه، وىشءون أوءار آلات النفاق لىءرفوا علیها أءانهم المعءاءة للءاكم الءنىء وءىء زمانه وفرىء عصره وأوانه، منبء الءكمة ورب الصلاء والإصلاء.. إلى ءىر ءلك من أءوار النفاق وءءوء "رىما" إلى عاءءها القءىمة !!! ومن ىقرأ ءالارىء بامعان ىءء نماءء واضءة لهذا وءاك فولاء أهل النفاق لمقءء السلءة ولا ىهم من ىءلس علیه بل ومن قء ىءلسون علیه ما ءام نفوءهم ومصالءهم فى الءفظ والصون.

ورءم أن ءلك الصفاءة من ءارىء نظم الءكم قء طویء وءءلء ءمة ءالارىء فى العصر الءءىء، منذ ظهراء أفكار ءءءور من العءء الءءماعى الى ءساىر، وءءول الشعب من رعایا إلى مواءنىن ىءءارون من ىمءلهم فى المءالس النبایىة وفق أصول معىنة، وبءلك

أصبحت "الأمة" مصدر السلطات، وامتدت خيمة حقوق الإنسان لتظل المواطنين، ورغم أننا عرفنا شيئاً من هذا على شكل مواثيق وديساتير فإن الحاكم فى مصر ظل يحمل جينات فرعونية، فاللائحة الدورية والمجلس النيابى الأول جاء منحة من الخديو اسماعيل عام ١٨٦٦ ومن اختيروا لتمثيل الشعب اعتبروا "عبيد أفندينا".

وجاء الأخذ بنظام مجلس الوزراء عام ١٨٧٨ بضغط من الدول الأوربية للحد من السلطة الفردية للخديو، وأخير جاء دستور ١٩٢٣ منحة من الملك فؤاد، صاغته لجنة معينة من الملك، وكذلك كان شأن الديساتير الأخرى حتى الدستور الحالى.

وعلى ما احتوته تلك الديساتير من سلطات واسعة للحاكم ملكا كان أو رئيس جمهورية، تقنن أهل النفاق فى حث الحاكم على توسيع صلاحياته وتضييق حقوق الأمة وتزييف ارادتها فى الانتخابات منذ عام ١٩٢٤ حتى الآن.

واستمروا فى عزف ألحانهم البيغضة فأطلقوا على الملك فاروق (مثلا) "الملك الصالح" واعتبروه المعلم الأول و"العامل الأول" فارداته "سامية" وما ينطق به كلام فوق مستوى مايقوله البشر .

حتى جمال عبد الناصر لم يسلم من أهل النفاق الذين وصفوه بالزعيم الملهم، فكان الرجل يصر دائما ان الشعب هو المعلم وهو القائد، أما أنور السادات "الرئيس المؤمن" "بطل الحرب والسلام" فغرق حتى أذنيه فى بحر النفاق، وكذلك فعل حسنى مبارك، فالجلوس على مقعد السلطة يصيب الجالس عليه بالخلاء ما دامت إرادته لا مرد لها، وما دام طمأنته جوقة المنافقين الى أن "كله تمام".

فالغريب أن أحدا ممن تربع على مقعد السلطة لم يع دروس التاريخ، فلم يحجب الفساد عن الملك فاروق بقدر ما زين له، وعندما كان نظامه يحتضر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية كان الجميع يعطونه "التمام" وتورطت مصر فى كارثة ١٩٦٧ لأن عبد الناصر اطمأن الى "التمام" الذى أعطاه له عبد الحكيم عامر عندما سأل عن مدى استعداد القوات المسلحة؟ فقال العبارة المشهورة "برقبتى يا ريس" وكان السادات مطمئنا تماما وهو فى طريقه الى المنصة التى شهدت مصرعه لأن "كله كان تمام".

ولعل موقف النظام الحالى يعبر عن صورة التمام الكاذبة التى لا بد أنها كانت وراء القمع الأمنى لحركة الجماهير المسالمة المطالبة بالاصلاح وعدم اعتبار لما شهده العقدان الأخيران من تغيير فى وسائل الاتصال جعل أحدا لا يستطيع اخفاء ما يحدث فى أى ركن من أركان العالم، وصورة الفلاحة المصرية ذات الطرحة والسروال الطويل وهى تتسلق حائط لجنة الانتخابات المحاصرة بقطعان الأمن المركزى شهدها العالم كله، وكذلك صور كارثة العبارة والطريقة الشائنة التى اتبعتها الحكومة فى معالجتها، وصور قوات الأمن بملابسهم المدنية وهم يدوسون بأحذيتهم العفنة وجوه المواطنين الشرفاء الذين خرجوا يحملون لوحات الاحتجاج ويهتفون باسم مصر، و صورة قطعان الأمن المركزى وهم يمزقون العلم المصرى الذى رفعه المتضامنون مع القضاة المعتصمين، ناهيك عن هتك أعراض الصحفيات المصريات والأجنيبات أكثر من مرة، وما يقال على الشبكة الدولية للمعلومات من وجود ملف كامل بالصور لدى المفوض الدولى لحقوق الانسان بجنيف.

هل يستطيع عاقل أن يصدق أن مايجرى فى بر مصر "كله تمام" رغم ذلك كله؟ من الغريب أن الحكومة المصرية تعتقد ذلك!!

ولعل من يتابع الفضائيات العربية والأجنبية الـ (CNN, BBC) يلاحظ ذلك الاعلان الساذج الذى يدعو المستثمرين العرب والأجانب إلى الاستثمار فى مصر. ولا غرابة فى ذلك ولكن الأغرب والأعجب المبررات التى يسوغها الاعلان لحسم اختيار المستثمرين لمصر. لاقتصاد المصرى يحقق نموا سنويا قدره خمسة بالمائة "راحت على الهند والصين يا جدعان" والبورصة فى مصر توسعت بمقدار ألف بالمائة "يا عينى على بورصات طوكيو ولندن ونيويورك"، ثم يظهر الوزير محمود محبى الدين يتحدث عن الاعفاءات الضريبية والمزايا القانونية لرأس المال الأجنبى ويختتم بظهور نجيب ساويرس ليقول ان مستوى المعيشة فى مصر زاد بنسبة 7% وبذلك سوف يقبل الناس على شراء خطوط التليفون المحمول.

ولست أدرى مدى صلاحية منطوق "كله تمام" فى مثل هذه الحالة، وعلى رأى المثل: "إذا كان المتكلم مجنون فالمستمع عاقل" أليدري العبقري الذى صاغ الاعلان أن أى مستثمر مبتدئ لابد أن يتحقق من تلك النسب المضروبة للنمو وارتفاع مستوى المعيشة... الخ بالدخول على موقع البنك الدولي فإذا دخل على موقع صندوق البنك الدولي سيكتشف أن حجم الدين للمصرى بلغ ٦٥٠ بليون "بالباء" جنيه منها نحو ١٥٪ ديون خارجية والباقي دين وطنى محلى، ولابد أن يقع على مواقع هيئات أخرى تتناول الأحوال الاقتصادية والاجتماعية فى مصر: الارتفاع المتواصل لتكاليف المعيشة "وليس لمستواها" واتساع دائرة من يقعون تحت خط الفقر، والملايين الأربعة من العاطلين عن العمل "على أكثر الفروض تفاؤلاً" وما اتصل بذلك كله من أزمة اجتماعية لها تجليات مختلفة ولايدري حزب "كله تمام" أن مصر مصنفة دولياً فى موقع متقدم بين الدول الأكثر فساداً فى العالم وأن كل ما اتصل بالصفقات والعمولات متاح على شبكة المعلومات بل والثروات الشخصية التى حققها الفاسدون فى بلادنا وغيرها، ناهيك عن مأساة البحث العلمى وحال جامعاتنا التى تتنافس مع بعض دويلات العالم على المراكز المتأخرة دولياً.

ومن الغريب والعجيب معاً أن يرتكن النظام الى "صداقة" الولايات المتحدة و"التحالف" معها فقد صرح المتحدث باسم الخارجية الأمريكية فى معرض التعبير عن عدم ارتياح الحكومة الأمريكية لما أقدمت عليه الحكومة المصرية من استخدام العنف ضد المظاهرات السلمية المطالبة بالإصلاح، وكذلك انتقاده لحكم النقض الصادر بحق أيمن نور، نجده يختم تصريحه أو "بيانه" بأن ذلك لن يؤثر على المساعدات التى تقدمها الولايات المتحدة لحليفتها مصر التى ساهمت فى تقديم المساعدات القيمة للمجهود الحربي الأمريكى فى العراق، وكذلك للدور الذى تلعبه لتحقيق السلام بين "إسرائيل" والفلسطينيين "أين"؟

فاذا كان النظام يعتبر بذلك أن "كله تمام" وأنه يستطيع أن يستمر فى سياسته تلك، فليتذكر ماكان من حال الشاه محمد رضا بهلوى مع أمريكا، فقد أدى إليها أضعاف مضاعفة مما أداه لها نظام الحكم عندنا، وعندما وقعت الثورة تبرأت منه، وضنت عليه حتى بالعلاج، فلم يجد صدراً حنوناً سوى صدر السادات "الحليف الجديد" لأمريكا" ولم يجد قبراً يحتوى جثمانه سوى تراب مصر "وكان ترابها كان ناقص".